

« كرنك » نجيب محفوظ : رواية هابطة ...

شخصية يمكن مناقشتها او رفضها لما ننطوي عليه من تناقض اسم يدل الكاتب جهدا لاستنماره كمادة درامية خام يمكن ان تصاعف تراء العمل، بل ظل نمرة المرجح بين طابع الشهادة المنصية بالحقيقة ، والنزوع الى التبرير اسي ينسد بنده الحقيقه حين يلتبس لنفسيان عنفرا ، وللقللة فكرا ، وحين يقيم مقاربات تاريخية غير واردة : (هل عرفنا ما كان يعايبه سدان الحارة في القاهرة عندما كان صلاح الدين يحقق انصاره الحاسم على الصليبيين ؟ هل تحيلنا آلام اهل القري المصريه عندما كان محمد علي يكون امبراطوريه مصريه ؟ هل تصورنا عصر النبوة في حياته اليومية واندعوة الجديدة ففرق بين الاب وابنه والاخ واخيه ، تزق العلاقات العقيمة ونحل العذاب مكان التقاليد الراسخة ، وبالمثل الا يستحق انشاء دولتنا العلمية الاشتراكية الصناعية التي تملك أكبر قوة في الشرق الأوسط ، الا سنسحق ان نسحق ان نسحق في سبيلها تلك الآلام ؟ وكنت اشعر ضيلة الوقت بأنه يمكن ان اضع نفسي بضرورة الموت وفائدته بمثل هذا النطق . ص ٢٠) .. فمن حق القارئ ازاء اسئلة كهذه ان يتيسر اتي التباين الجوهرى بين عهد النبوة او عهد الانشاء الحقيقى للبناء العلمى الاشتراكي ، وبين مصر الخمسينيات والستينات ، ذلك التباين الذي تكسب به السفحيات والآلام معنى ودورا نارة ، او نمسي مجرد علامة ادانة واتهام لزمان (القوى المجهولة وجوايسس الهواء واشباح النهار - ص ٢٢) نارة اخرى ... من حق القارئ ان يقول : لا شيء يرد فعل الانسان في انشاء الثورة وجنودها فلا يعود الواحد منهم سوى مخبر ذي (مراب ثابت وضهير معذب ص ٦٣) ، ولا يملك ان تكرر فضعات البطش (اي تساؤلات ولا عنفا في ردود الافعال ، كالعادة - نفس الاسباب - نفس النتائج - لا جلوى من التفكير . ص ٣٦) . والرواية بمنظفها الفني مكرسة دون ريب لادانة هذا المسلك الدموي اللامبرر ، لكن المؤلف بمنطقه الفكرى الخاص ، وبسبب نوزعه بين الادانة والتبرير ، يعد آثار ذلك المسلك (نفايات ضرورية يلفظها انشاء الضخم في سموحه - ص ٢٠) ، لذا تأخذة الحيرة بشأن وضعه ، فهو (رغم انحرافاته يتضمخ ويعظم ويتعظم ، يملك القوة والنعوذ ، يصنع الاتيياء من الابرة حتى الصاروخ ، يسر يابجاه انساني عظيم ، ولكن ما بال انسان فيه قد نضال ونهافت حتى صار في تفاهة بعوضة ، ما باله يمضي بلا حقوق ولا كرامة ولا حماية ، ما باله ينهك الجبن والنفاق والخواء . ص ٢٨) ، فلئن كان جواب هذا السؤال لدى الكاتب هو ان هذا التساؤل جزء من آلام السحول ، وتلك التفاهة جزء من نم انصر ! فانه حين يلتفت الى آراء شخصياته فانها نهمس بالحقيقة الاصدق والملاحظة الاكثر صوابا وشرعية : (يقولون اننا نعيش ثورة يستوجب مسارها تلك الاستثناءات ، والله لا بد من التضحية بالحربة والقانون ولو الى حين ، ولكن مضى على الثورة ثلاثة عشر عاما او يزيد ، فآن لها ان تستقر على نظام ثابت . ص ١٩) .. الم يكن هذا المطلب العادل ، هذا الطرح الصحيح للقضية ، جديرا بان يحول المؤلف على تنقيسة روايته من التماس البررات المفتعلة لما يعده استثناءات او اخطاء في مسيرة ايجابية صاعدة ، وما قد يحق للقارئ ان يعده الثمرة الطبيعية لجوهر الرحلة ذاتها .. فالقللة في (الكرنك) ليسوا بناة تحول عظيم اخطأوا في غمار العمل ومصاعبه خطأ هينا فداوسوا هذه الضحية او تلك عبورا الى تحقيق هدف جليل يمكن ان تتضائل بعد بلوغه الاخطاء او حتى تقنفر ، اذا ما قورنت بضخامة الانجاز الحضاري الجديد ، لكنهم صنائع العرش والافطاع يواصلون (نشوة تقليد الآلهة) لصالح اقطاع الطبقة الجديدة :

(نحن في زمن القوى المجهولة وجوايسس الهواء واشباح النهار ،

(الكرنك) رواية نجيب محفوظ الاخيرة هي الخطوة الثانية في الانعطاف السلبية الغربية التي بدأت برواية (حب تحت المطر) ... فيعد شوامخه الواقعية التاريخية الباقية ، وبعد عطائه المجدد اiban المرحلة الفلسفية السيكلوجية ، ناتي الروايتان الاخيرتان نقطة هبوط مفاجيء في الخط البياني لرحلة نجيب محفوظ الروائية ، حتى لتعجب كيف ارتضى انالكب النؤوب الخبير بوضع الحقيقة الشاملة المستفيضة في بناء يوازها دقة وعمقا وضخامة ، ان يتقلب العمل الروائي لديه الى لعبة صغيرة جاهزة ومكررة ، سلسلة مجازات معادة يتراجع فيها الابداع ازاء الحرفة التي لم تعد متخفية متكئة ، بل ولم تعد تشر بناء متماسكا منضبعا يتطابق مع الموضوع تطابقا لا تفره نفسه ، ولا حواشي تثلل اضرافه المزاخية الباردة .

حقا انه ما زال على طريق الفرض الكبير ذاته : ان يواكب حركة الواقع ويلم بابعاده في صورته الشاملة ومساره التاريخي ، لكن هذه المحاولة لم تعد تتحقق الا في انجاز روائي باهت وصغير لا يرقى الى مستوى الفرض ذاته ، ويعجز بالتالي عن ان يكون شهادة عميقة وصحيحة عن الواقع ... فنجيب محفوظ في (الكرنك) يختار المفهى ، بدلا من البنسيون او العوامة ، مسرحا يجمع بين عدد من الشخصيات المثلة للأجيال والطبقات المصرية ويقوم بينها سلسلة من العلاقات العضوية والمفتعلة لتكشف عن رؤية انؤلف لمسار الحياة العامة خلال العقدين الماضيين من تاريخ مصر الحديث ، وهي رؤية تتذبذب بين الولاء لهذه الفترة والاعجاب بابرز مزاياها التاريخية ، وبين فضح ما رافقها من اخطاء ومطالب تصافرت على اطفاء جذوة الامل والايامن الثوري في صدور الشباب الوطنيين الذين يمثلهم في الرواية اسماعيل وزينب وصديقهما حلمي حماده ، فقد عانوا من الفترة التي آمنوا بها وارخوا ميلادهم بميلادها مظالم غير مبررة ولا معقولة فسجنوا وعذبوا واستخدمتهم اجهزة القمع والتمسك مخائب ذليلة في قبضتها العاتية ، فساد الايمان الحقيقي بقوة التسلط والخوف الذي يستهلك الروح والشعور بالسقوط الفضي الى الاستهتار بكل شيء .

ان توزع المؤلف بين الاعجاب والفضح ، بين الاعتراف بما حفنه فترة ما قبل حزيران من انجازات حضارية منقمة ، ولمس ما انطوب عليه تلك الفترة من امتدادات التراث الوحشي المتحدر من عهود الطفيان الاسود هو عنوان الرواية ومحورها : (وترددت طويلا بين انبهاري بالعظمة ومقتي للزرع والارهاب . ص ٣٤) ، لكنه بدلا من ان يكون اساسا للعمل ، او بذرة للموضوع الخصب ، او مسارا دراميا لحرركته الداخلية ، فقد بقي مجموعة ملاحظات متناقضة تتناثر هنا وهناك بعد كل مرحلة من مراحل الحدث ، او تعليقات خاطفة اقرب الى الهوامش والاستنتاجات العابرة ، ذلك ان الحدث في الرواية لا يمت بأدنى صلة الى (العظمة في تولدها وامتدادها) والتي يدعونا المؤلف الى ان نتذكرها اذا ما تذكرنا الحياة الزاخرة بالآلام والسلبيات ، فهو مثال على تسلط وامتداد الجاهلية الرذولة الفامضة وقد تصاعف جيروتها ، (فلم يضل احد من رواسب النل والهزيمة والخذلان . ص ١١) .. وما عاناه بطلا الرواية جزء من (الحقائق المرعبة) توح بها القلوب المفلقة المنكسرة للمؤلف ، الشاهد ، الراوي ، الذي يجهد ان يقسم توازنا مفتلا بينها وبين ما يتطلبه انشاء دولتنا العلمية الاشتراكية الصناعية التي تملك أكبر قوة في الشرق الأوسط) من آلام ينبغي تحملها ، فهي (ليست الا النفايات الضرورية التي يلفظها البناء الضخم في سموحه) . ان الرواية تفتح امام القارئ ثغرة اساسية لا نفتحها الاعمال الكبيرة الناضجة ، فهي بدلا من ان تطرح الحقيقة الشاملة في اتساعها وتمغنها وقوة الصدق فيها ، تسمي مجالا لآراء وتقييمات

وجعلت أنجيل وأندكر ، نذكرت ملاعب الرومان ومحاكم السفينس وجنون الإباطرة ، نذكرت سير المجرمين وملاحم العذاب وبراكين القنوب السود ومعارك القابات ... وعندما يلفنا الظلام أو تسكرنا القوة أو نظربنا نشوة تقليد الآلهة فإنه يستيقظ في اعماقنا تراث وحسني ويصمت فينا العصور البائنة .. وظلت معلوماتي تركز على انخيل حتى أتيت لي بعد ذلك بسنوات أن فتحة أي انقلب المغلقة في طرد جد مخلصه وتمدني بالحقائق المرعبة وتفسر لي ما غمض علي فهمه من الأحداث في ابان وقوعها ص ٢٢) .

تلك واحدة من ملاحظات عابرة ، أو اشارات ضارئة ، لو كان الكاتب سعى ابي ان تكون مركز العمل ينهض البناء على اساس منها ، وتتردد اصداؤها في اضرافه ، لكانت (الكرنك) مما يستحق المقارنة مع روايت نجيب انسابه ، والانتساب الى تاريخه الروائي انحافل ... فما فعله نجيب محفوظ انه اختار من هذه (الحقائق المرعبة) مثلا : معاناة ونهايه عاشقين أما بالثورة ، فكانا - دون سبب أو عزاء - ضحيتين لبطش لا مبرر له فتك بهما حتى (تسلل مرض مجهول الى روحيهما شيئا غريبين أو كالغريبيين ، حتى بت اعتقد أنهما واريا حبهما القديم التراب ، وان كليهما قد استقل بحياته واحزانه . ص ٤٢) ، ثم احاط هذا المثال بمجموعة آراء متناقضة ، بدين التجربة نارة ، وتعدنا امرا طبيعيا او ضروريا في مراحل التحول الحضاري ، نارة اخرى .

ان قصتي اسماعيل وزينب بين الفقر والحب والسجن والخيبة خطن متشابهاً يضمنا في سايكهما وعلاقتهما بنهاية حلمي حمادة قصيرة مستقلة شبه معزولة عما حولها من شخصيات واجواء يمكن ان تكون ديكوراً : قصة الحلم الكبير والاهتاج الصعب والنهاية الاليمية التي جاءت مع هزيمة حزيران .. وحتى علاقتهم بصديقهما حلمي حمادة ممثل اليسار في الرواية لم تلتمح في بناء روائي عضوي ، لان حلمي حمادة كان له قصته القصيرة المستقلة مع الشخصية - الرمز: العجوز فرنفة ، الرافضة القديمة وصاحبة المفهى تنطوي شخصيتها في الرواية على ابعاءات رمزية بمصر ذاتها ، فمنذ ان استهوى الكاتب ان يلتفت النقد الى الشبه العفوي بين مصر الحرب وحميدة بطة (زقاق المدق) في ضياعها وآمالها وسقوطها ، وهو يكرر هذه اللعبة الروائية المرة بعد الاخرى : زهرة في (ميرانار) ، عليات في (حب تحت المظرة) ، سمارة في (ثرثرة فوق النيل) . ان الهوية السيكلوجية لفرنفة تكفل ، منذ الضربات الاولى ، بفضح الوظيفة الرمزية لها : (انطفاً سحر الانونة ، وجف رونق الشباب ، ولكن حلت محلها روعة غامضة واسى مؤثر . ما زالت تحيلة رشيقة يوحي عمودها بالنشاط والحيوية، وثمة قوة مهدبة مكسبة من التجربة والعمل ، اما خفة روحها فآسرة نافذة . ص ٤) ، ويحقق الكاتب عن طريق علاقتها بحلمي حمادة : حبها له ، واعجابها به ، وقلقها عليه ، رؤيته السياسية المتكررة : ان الخلاص والكرامة في افتتاح مصر على اليسار الذي يتحمل احسانا مسؤولية ابتعاده عن مصر التي تشفته .. ومصر ليست (فرنفة) فقط ، بل هي (زينب) ايضا ، فلا بد اذن ان يميل قلب هذا الفتى الرشيق الوسيم الشجاع الثائر على التقاليد ، الى زينب ايضا : (ولم تكن جاذبية فرنفة موضع شك عندي ، فقد وقعت انا نفسي في اسارها ، ولكن هل يكفي ذلك لاعدل عن ظني القوي فيما يتعلق بحب حلمي حمادة لزينب - ص ٤٩) .

ان معاناة زينب تكرر شبه ميكانيكي لمعاناة حبيبها اسماعيل، وان اختلفت بعض التفاصيل ، فهما ابنا نموذحيان للبرجوازية الصغيرة : معاناتها ، ضعفتها ، احلامها ، سقوطها .. وعلاقتها بالشخصيات الاخرى تكرر حرفي لما قدمه نجيب محفوظ في (زقاق المدق) و (ميرانار) مفزى ودلالة .. فالجميع يطمعون بها ، وعلاقة الاخرين بها مرآة تكشف جوهر اولئك الاخرين ... هكذا يشاركها اسماعيل حياتها الفقيرة المحببة ، ويخفق لها قلب حلمي حمادة ، ويطمع بها بعد سقوطها عم حسب الله عشيقه لا زوجة ، وزين العابدين عبدالله (مسرة يتسلى

ذلك هو الخلاص البهيج يسوقه حلم مقحم ومفتعل يفضح حيرة الكاتب وتعبه ، حيرة يشي بها السؤال : (لم ادر كيف يمكن ان يتطير من الحشرات ذاك البناء الشامخ - ص ٣٤) ، وتعب يوح به اعترافه بان (من العبث ان تحاول الوصول الى منطق ثابت من خلال عاصفة - ص ٨٨) .

بغداد